طرائف عباسية :

نخلتا حلوان ...

للشيخ محمد رجب البيومي

للشعراء إلهام خفي يعرج بهم إلى ملكوت رفيع ، فهم يرون الكائنات الماثلة في صور غريبة متخيلة . وقد يقف الشاعر أمام رسم ماحل فيحاوره ويجادله ، ويجعل منه إنساناً يفصح عن شكاته ، ويبين عن طواياه . وإذا كنا نحمد الكاتب الذي يصور مشاعره تصويراً صادقاً فيعرض لقارئه ما يختلج في صدره من إحساس في أسلوب مرسل طليق ، فنحن بلا شك نعجب بالشاعر الذي يتصور عواطف غيره فيفصح عنها إفصاحاً مشرقاً ، وقد يدق تصوره فيتغلغل فيما حوله تغلغلا عميقاً ، فإذا مر بقصر سامق ، أو شاهد دوحة باسقة ، منحهما جانباً من الإحساس البشري النابض ، ثم يعبر عما يتخيله من شعورها المزعوم فيجمع إلى خفة الشعر غرابة المنحى وطرافة التفكير .

والحقيقة أن الشاعر يخلع إحساسه — في أكثر مواقفه — على ما حوله ، فإذا كان مبتهج النفس ، منبسط الأسارير ، تصور ما أمامه من نبات أو حيوان كذلك ، فرسمه في صورة مرحة سارة ، أما إذا كان ملتاع الفؤاد منقبض الصدر ، فإنه يتحدث عن شعور غيره في تبرم وانفعال ، وقد تهتف حمامة على فنن ناضر فيسمعها شاعر حزين فجعه البين في أحبائه ، فيتصور هتافها نواحاً مريراً ، وقد يسمعها شاعر مرح ممتع بأصفيائه ، فيتصور هتافها غناء ساحراً ينعش الأفئدة ويسري عن النفوس .

وسنتحدث عن نخلتين عجيبتين بسقتا في ناحية متراضمة بحلوان (في آخر سواد العراق) ، وقد لبثتا حيناً من الدهر يمر بهما الناس في الغدو والرواح ، فلا يسترعيان انتباه إنسان ، حتى نزل بهما مطيع بن إياس الليثي ، وكان شاعراً متمكناً يسلك بقريضه فجاجاً متشعبة ، فتحدث عنهما حديثاً جازت به الركاب ، وتناقله الرواة ، فتسامع به الوزراء والخلفاء ، وقد ضرب الدهر ضرباته بالنخلتين فطواهما في عنف عن الوجود منذ ألف ومائتي عام ،

المماليك السلطانية وأجناد الحلقة . أما المماليك السلطانية فكانوا أعظم الأجناد شأنا ، وأرفعهم قدرا ، وأشدهم إلى السلطان قربا ، وأوفرهم إقطاعا ، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة .

وأما أجناد الحلقة فهم عدد جم وخلق كثير ، ولكل أربعين نفسا منهم مقدم ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر في الحرب ، فإن مواقفهم معه ، وترتيبهم في مواقفهم إليه

ومن الأجناد طائفة ثالثة يقال لهم البحرية يبيتون بالقلعة وحول دهاليز السلطان في السفر كالحرس ، وأول من رتبهم وسماهم بهذا الإسم الملك الصالح نجم الدين أيوب[(١)] . وللجيش هيئة أركان حرب كان السلاطين يعتدونها لرسم الخطط وإعداد العدة ، ولم يكن للسلطان بد من أن يعنى برأيهم ويعمل به ، وكثيرا ما كان يخبرهم أنه كأحدهم يكفيه فرس واحد ، وجميع ما عنده لمن يجاهد في سبيل الله[(٢)] .

(١) صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٥

(٢) السلوك جـ ١ ص ٥١٥

وكان الجيش مقسما خمسة أقسام : مقدمة ، وتكون أمامه لتبدأ المناوشات وتتعرف الطرق وترتاد المواضع وهي غالبا من الفرسان ؛ وقلب ، وهو وسط الجيش وفيه يتخذ القائد العام مركزه غالباً حتى يراه جميع الجند لتنفيذ جميع أوامره ، أو في المقدمة ليثير حماسة الجند ويلقي الفزع في نفوس أعدائه ، وفي عريش له على ربوة يشرف منها على جيشه . أما الكتيبة الثالثة فتوضع يمنة وتسمى الميمنة ، كما توضع الرابعة على يسارها وتسمى الميسرة ، ويطلق عليهما الجناحان ، وتوضع الكتيبة الخامسة في الخلف وتسمى ساقة الجيش . وكان لكل فرقة من هذه الفرق الخمس أمير يأتمر بأمر القائد يقال له صاحب الميمنة أو الميسرة وهكذا[(١)] .

ويتكون الجيش من المشاة والخيالة ومن أجل هذا عظمت العناية بأمر الخيل .

(يتبع) أحمد أحمد بدوي

(١) من كتاب نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين ص ١٨٣

وبقى حديثهما فى شعر مطيع مثاراً بعيد الخلود !

لم يكن مطيع هداراً لجباً يجذب بروعته الأبصار كالأقيانوس الصاخب ، بل كان شعره ينحدر رقيقاً عذباً كالغدير المترقرق ، وذلك شأن من يقصر فنه الشعرى على الغزل الرقيق ، والمجون الظريف ، فلا يحيد عنهما إلى المدح إلا فى ظروف خاصة تفرضها المحاباة ، وتقتضيها الطاعة فى عصر تطلع فيه الأمراء إلى المدح والإطراء . وكانت حياة اللهو والمرح قد غمرت مطيعاً بمباهجها الفاتنة ، فاصطحب الخلعاء ، ونادم الظرفاء ، وتحفز إلى أسراب الكواعب يسارقهن البسمات ، ويخالسهن الصبوات . غير أن الدهر لم يفلته من كيده ، فقد أوقعه فى غرام جارية فاتنة تحت يده ، فلكت عليه فؤاده ، وتخطفت أزمة رشاده ، ثم حزبه الخطب الملم ، فاضطر إلى بيعها اضطراراً ، وهام فى الآفاق على وجهه ، فقذفت به النوى إلى حلوان ، ثم برّح به الشوق إلى حسنائه ، واشتعل الحنين فى أحشائه ، فنظر فيما حوله ذات اليمين وذات الشمال ، فرأى عن كثب نخلتين متجاورتين ترتفعان فى الأفق إلى مدى شاهق ، وقد هبت بهما رياح منعشة ، فرنحت معطفيهما ، وحاولت أن تضمها ضماً يبرد الغلة ويدفع الشوق ، فاشتبكت فروعهما السامقة فى أجواز الفضاء وقتاً غير قصير !

منظر عاطفى أخاذ ، عصف بالشاعر عصفاً عنيفاً ، فتذكر ملاعب الصبوات ، وعهود المسرات ، وحسد النبات على التئام شمله ، واكتمال صفائه ، وكأنه تصور للنخلتين آذاناً تسمع وعقولا تفهم ، فأخذ يحدثهما بضربات الدهر ، ونكبات الأيام ، ثم استشهد بنفسه على صحة ما ادعاه ، فذكر جاريته الحسناء ، وكيف كانت تذهب شجونه وتسرى همه ، غير أن الزمان لا يبقى على أنس ، فاستل روحه من جسمه ، ووقف له بالمرصاد أى سار ، وهو لابد سيقف للنخلتين موقفه منه ، فتبدلان وحشة بعد أنس ، وتنائياً غب لقاء . وهكذا يتشاءم الشاعر تشاؤماً يرنه من خاطره ، ويبرد من لوعته ، وفى النفوس من يلحقها الألم الممض فتشتعل من الغيظ اشتعالا ، حتى إذا لحق بغيرها من الأشياء سرى عنها بعض الشىء ، وأخذت تبصر وتتأسى بالمصاب الجديد . ولقد علل مطيع نفسه بما سيلحق النخلتين — قبل وقوعه — فبردت جوانحه ، وطفق يصف شجونه المتعاربة ، إذ يقول :

أسعدانى يا نخلتى حلوان   وابكيا لى من ريب هذا الزمان
أسعدانى وأيقنا أن نحسا   سوف يأتيكما فتفترقان
ولعمرى لو ذقتما ألم الفر   قة أبكاكما الذى أبكانى
كم رمتنى صروف هذى الليالى   بفراق الأحباب والخلان
جارة لى بالرى تذهب همى   ويسرى دنوهـا أحزانى
ورغمى أن أصبحت لا تراها الـ   عين منى وأصبحت لا ترانى

وإذن ، فقد روّح الشاعر عن نفسه ، وأزال بوعيده المنكود ، ونحسه الأشأم بعض ما يساوره من الوساوس . وكأن النخلتين قوة أصاختا لشعره فأسعدتاه بما يريد ، أو هكذا تخيل ذلك ، فخف إلى بغداد بارد الصدر ، وقابل صديقه حماداً فأسمعه ما قال فى النخلتين من الشعر ، وعبر عن سروره بما تخيله من الإسعاد والعون . وتمضى الأيام فى سيرها الرتيب فتميل على قوم بالرفاهية والأمن ، وتلهب آخرين بسياطها الملتهبة ، فتصهر الأفئدة ، وتحرق الجلود ، ومنهم حماد صاحب مطيع ، فقد ثارت به عاصفة هوجاء كادت تطيح بحياته ، فتذكر شعر صاحبه ، وخف إلى سدرتين ماثلتين بقصر شيرين ، وهو يظن كل الظن أنهما ستسعدانه ، وستمثلان دور النخلتين أصدق تمثيل . وينظر حماد إلى السدرتين الشاخصتين فلا يحس براحة ، فينقلب إلى منزله ساخطاً ناقماً ، ويجمجم بحروف حزينة تألف منها هذان البيتان :

جعل الله سدرتى قصر شيريـ   ـن فداء لنخلتى حلوان
جئت مستسعداً فلم تسعدانى   ومطيع بكت له النخلتان !

والواقع أن مطيعاً رغم تحامله على القرينتين الآمنتين ، قد أسدى إليهما يداً بيضاء ، فقد نبه من خمولها المستكين ، وذاع شعره فى الناس فأخلصهما من أزمتين حادتين ، فقد مر الخليفة الباطش أبو جعفر المنصور بالعقبة ذات يوم فوجدهما تزحمان الطريق ، وتعوقان القوافل المتشدة من السير بضع ساعات ، فأمر باستئصالها فى غير هوادة ؛ ولكن أبيات مطيع ترن فى أذنيه ، ويتقدم إليه أحد أعوانه فيقول فى تضرع ذليل : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون النحس الأشأم الذى عناه مطيع فى قوله :

أسعدانى وأيقنا أن نحسا   سوف يأتيكما فتفترقان !

فيتراجع المنصور الجبار عن قصده ، ويخشى أن يزيل النخلتين فيتناقل الناس أنه النحس الأشأم ثم يستعيد الأبيات فيثنى عليها

في ليالة ويهش لذكرى مطيع ، فيخصه بجانب من الأطراء ، وذلك ظفر عظيم للنخلتين ، وكسب هائل لشاعر مستكين .

ويعجب القارئ حين يعلم أن خليفة جباراً كالمنصور يرتاح إلى ماجن خليع كمطيع !! مع أنه فوق سيرته الداعرة قد صاحب الخلفاء الأمويين ، وغرق في لجج متراكبة من نوالهم الجزيل ، مما يهيج عليه أبا جعفر ، بل يوجب أن يلتمس من جنونه العابث مقتلا يرديه ، فيمحق نديم أعدائه ونجيّ خصومه ، ولكن القدر قد هيأ للشاعر فرصة مكنته من التزلف للمنصور ، فاستل سخائم صدره ، وبدد غياهب مقته ؛ فقد اختفى الشاعر حقبة طويلة في مطالع العهد العباسي ، حتى إذا علم بما اعتزم عليه المنصور من مبايعة ولده المهدي بالخلافة ، كشف من نفسه اللثام ، ودلف إلى الحفل الحاشد في جرأة عجيبة ، ثم صاح في الناس بأضخم صوت وأعلاه ، فروى عن أناس من المحدثين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال :(المهدي منا محمد بن عبدالله ، وأمه ليست عربية) والجمهور في كل زمان ومكان كالأطفال يؤمن بالترهات ويدين بالأباطيل ، فصفق للراوي الآفك ، وصدق ما قال بدون تمحيص . ولم يخف على أبي جعفر افتراء مطيع ، ولكنه وجد لكلامه ثمرة نافعة ، فسره بمطلبه وأمنه على نفسه ، فقر القلب الواجب ، ونام الطرف الساهد ، وأنس الهائم الشريد .

ولقد مات أبو جعفر ، وقام بالأمر من بعده ولده المهدي ، وكان ذا شغف بالرحلات المتنوعة ، فوصفت له عقبة حلوان ، فأصدر أمره بالسير إليها ، فأخذت زينتها ولبست من التنميق حلة زاهية ، وبالغ العمال والصناع في زخرفة المكان زخرفة تليق بالزائر العظيم ، ثم حانت ساعة القدوم ، فحضر الخليفة في ملأ من سماره وندمائه ، وامتد بساط الأنس فصدحت المزاهر وعزفت القيان ، وكان في القينات جارية أديبة تدعى « حسنة » فجالت ببصرها في العقبة فرأت من كثب نخلتي حلوان ، وقد بقيتا على العهد متجاورتين متصافيتين فما جاء دورها في الغناء حتى انطلقت تصدح بقول ابن أبي ربيعة :

أيا نخلتي وادي بوانة حبذا   إذا نام حراس النخيل جناكما

ودار الخليفة ببصره فرأى نخلتي حلوان ، فعلم أن جاريته تشبهما من طرف خفي ، فأراد أن ينغص عليها صفاء الحفل فقال :

لقد خطر لي أن أقطع النخلتين فهما تزحمان الطريق ، فصاحت الجارية كالمشدوهة « أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون النحس الأشأم الذي تنبأ به مطيع » فتبسم في عجب وقال لمغنيته الجليلة : أحسنت في رأيك ، والله لا أقطعهما ما حييت ، ولأوكلن بهما من يتعهدهما بالسقيا والإنعاش . ثم عين لهما ساقياً خاصاً ، فما زال موكلا بهما حتى مات أمير المؤمنين !! وانتهت الأزمة بسلام . ولكن أي شيء يبقى على الأيام ؟! لقد عصف الدهر بأطواد شامخة رسخت أصولها في باطن الأرض وناطحت قمتها الجوزاء ، فهل يبقى على نخلتي حلوان ؟ كلا ! فقد فاجأهما النحس المشئوم على يد الرشيد ؛ حيث هاج به الدم مرة في حلوان فأشار عليه طبيبه أن يأكل جمّار نخلة فارعة ، فبحث أعوانه لدى الدهاقين فما تيسر لهم الدواء ، ففزعوا إلى إحدى النخلتين فقطعوها في عجلة وأتوا بالدواء للرشيد . ومر الخليفة بالنخلة الباقية في إحدى روحاته فتذكر بيت مطيع ، ووقف في مكانه واجماً ساهماً ، كمن ارتكب محظوراً خطيراً لا يمكن تلافيه ، ثم قال في حسرة كظيمة : عزيز عليّ أن أكون النحس المفرق ، ولوددتُ أني لم أذق الدواء، ولو تغلي الدم بحلوان .

واهاً لمطيع !! لقد جعل الرشيد يتحسر على استئصال نخلة حقيرة ، وكأنه قتل — بدون جرم — إنساناً ينبض بالحركة ، ويجيش بالحياة ، كما أتاح للنخلتين حديثاً يروى مدى الأحقاب ، وجعل منهما مادة دسمة للشعراء ، فنظم أحمد بن إبراهيم الكاتب في رثائهما أبياتاً دامعة ، وارتقى بهما شاعر آخر إلى مرتبة عالية ؛ فوازن بينهما وبين عاذلين من بني الإنسان ، والتمس لهما العذر في رفق ملموس (١) . فهل كان يدري مطيع حين نظم أبياته أي قصة عجيبة مثل فيها الفصل الأول وختم الرشيد فصلها الأخير؟ أجل لقد كتب الشاعر لنخلتيه تاريخاً يطالعه القراء كما يطالعون ترجمة عظيم مثّل دوره السياسي ثم لقي حتفه فترحم عليه الجميع .

ارحم الغصن لا تذله بسوء   قد يحس النبات كالإنسان

(جزيرة الروضة)   محمد رجب البيومي

(١) يقول بعض الشعراء :

أيها العاذلان لا تعذلاني   ودعاني من الملام دعاني
وابكيا لي فإنني مستحق   منكما بالبكاء أن تسعداني
إنني منكما بذلك أولى   من مطيع بنخلتي حلوان
فهما تجهلان ما كان يشكو   من هواه وأنتما تعلمان